

الرمز والتأويل في النص القرآني

سورة يوسف أنموذجًا

أ.د. دلال عباس

الجامعة اللبنانية - المعهد العالي للدكتوراه

تمهيد

القصة القرآنية، إما تاريخية لأحداثها وشخصياتها وجود واقعي في التاريخ، رويت للعبرة، أو واقعية تقدم أنموذجًا من أحوال البشر، سواءً حدثت في الواقع أو أنها مكنته الحدوث؛ فمن الأحداث الواقعية التي أشار إليها القرآن الكريم ما حدث في عصر النبي: كقصة معركة بدرٍ في سورة الأنفال ومعركتي أحد وحرماء الأسد في سورة آل عمران، ومعركة الخندق في سورة الأحزاب وصلاح الحديبية في سورة الفتح، وقصة الإفك في سورة النور؛ وهنالك بعض القصص القرآنية لها طابع تمثيلي أو رمزيٌ تُضرب مثلاً، ويمكن أن تحدث في أيّ زمان ومكان كقصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، وأصحاب الجنة في سورة القلم، فالبنية التفصيلية لكلٍ من هاتين القصصتين ومضامينها وحوادثها تشير إلى أنها قصة واقعية لا مانع من حدوثها في الماضي أو الحاضر أو المستقبل؛ ذكرها القرآن مثلاً وعبرةً.

على الرغم من أنّ القصة القرآنية الواحدة ذات الأصل الواقعي الواحد، باستثناء سورة يوسف، ترد أحياناً بأشكال مختلفة، فإن ذلك لا يعني تعدد الواقع، وإنما يأتي تعبيراً عن الانعكاسات الذهنية لشخصيات القصة، وتختلف الألفاظ أحياناً باختلاف الأحوال والظروف والحالة الذهنية كما في قصة موسى أنموذجاً، كذلك فإنّ القصة القرآنية من حيث توزّع عناصرها، من نوع القصة القصيرة، ولم تأتِ روايةً مكتملة إلا في قصة يوسف.

سورة يوسم:

تبدأ السورة بمقدمة تمهيدية تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن عرييًّا لمواجهة المشركين بعربيّة القرآن الذي كانوا يدعون أنّ أعمجّيًّا يعلّمهم رسول الله (ص) وتقرّر أنّه وحُي إلى النبيّ (ص) أحد الأميّن في قومه، الذين لا يتوجّهون إلى هذا النحو من الموضوعات التي جاء بها القرآن، ومنها القصص الكامل الدقيق.

سورة يوسم من السور المكية الطوال، نزلت بين عام الحزن على موت أبي طالب وحدّيجة سنديّن رسول الله صلّى الله عليه وآلـه وسلـم وبيعي العقبة الأولى ثمّ الثانية التي جعل الله فيها لرسول الله صلـى الله عليه وآلـه وسلـم وللعصبة المسلمة معه وللدعاة الإسلامية فرجـاً وخرجـاً بالمحـرة إلى المدينة، والسورة كلـها لحـمة واحدة عليها طابع هذه المرحلة الحرـجة الموحـشة بصفـة خاصـة. تتـألف من 111 آية، يؤـلـف متـنـها مـعـظـمـها: تـبـدـأ بـمـقـدـمة تـمـهـيدـية، وـتـنتـهي بـخـاتـمة تحـفيـزـية للـتـدـبـرـ في حـكـمة هـذـه القـصـةـ الـتـي تـبـدـأ بـيـوسـفـ وـهـوـ بـخـبـرـ أـبـاهـ يـعـقوـبـ عـنـ رـؤـيـاهـ إـلـيـ المـوـاقـفـ وـالـمـحنـ الصـعـبـةـ الـتـيـ مـرـ بـهـاـ فـيـ أـثـنـاءـ حـيـاتـهـ: اـبـتـادـأـ بـمـؤـامـرـةـ إـخـوـتـهـ عـلـيـهـ حـسـداـ وـبـغـيـاـ، إـلـيـ أـسـرـهـ الـذـيـ تـعـرـضـ فـيـ لـرـقـ أوـ لـماـ يـشـبـهـهـ، إـلـيـ مـوـقـفـ إـلـيـغـرـاءـ الـذـيـ يـخـتـلـطـ بـالـتـهـدـيدـ، وـتـعـرـضـهـ بـعـدـ ذـلـكـ لـلـسـجـنـ مـدـدـ طـوـيـلـةـ... وـالـذـيـ اـنـتـهـىـ إـلـيـ أـنـ يـتـسـلـمـ مـركـزـ القـوـةـ الـكـبـيرـةـ فـيـ إـدـارـةـ شـؤـونـ الـبـلـادـ، مـمـاـ جـعـلـهـ يـحـتـويـ مـشـاعـرـ إـخـوـتـهـ ضـدـهـ... ثـمـ يـجـمـعـ إـلـيـهـ أـهـلـهـ جـمـيـعـاـ... .

القصـةـ تـتـأـلـفـ مـنـ حـلـقـاتـ وـالـحلـقـةـ تـتـأـلـفـ مـنـ مشـاهـدـ:

الفصل الأول (ستة مشاهد)

المشهد الأول: المكان هو حيث يجلس يعقوب مع ابنه الذي يقصّ عليه رؤياه "إذ قال يوسم لأبيه..." (يوسف، الآية 1) أدرك يعقوب بحسّه وبصيرته أنّ وراء هذه الرؤيا شأنًا عظيمًا لهذا العلام، لم يُفصح هو عنه، ولم يُفصح عنه سياق القصّة كذلك، ولا تظهر بوادره إلاّ بعد حلقتين منها، أمّا اكتماله فلا يظهر إلاّ في نهاية القصّة...

المشهد الثاني: مشهد أخوة يوسف يتآمرون ويدبرون له ما يدبرون حقداً عليه وحسداً له، لإثارة أبيهم له: "اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً..." في هذا المشهد تبريد لقلب النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم... فالأخوة يتآمرون على أخيهم فكيف به هو الذي يواجه التآمر من مجتمع بأسره؟!

المشهد الثالث: الأخوة يحاورون يعقوب.

والنص يرسم بكلماته وعباراته كل ما بذلوه ليتوسلوا به إلى قلب الوالد المتعلق بولده الذي يتوسّم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم.

يبدأ سؤال فيه عَتْبٌ وفيه استنكار خفيٌّ؛ (مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) فذِكْرُ النصـح هنا وهو الصفاء والإخلاص يشي بما كانوا يحاولون إخفاءه من الدَّعْلِ المُرِيب... وحين علل ما يتهمنـه به بقلة صبره على فراقـه وخوفـه عليه من الذئاب: أعطـاهـمـ الحجـةـ والذرـيعةـ التيـ كانواـ يـبحـثـونـ عنـهاـ،ـ والتيـ كانت دليلاً على كذـبـهمـ كماـ سيـتـضـحـ لاحـقاًـ.

المشهد الرابع: تنفيذ المؤامرة النكراء:

في هذه اللحظة البائسة التي لا منفذ فيها ولا مُنقـد ولا مغيـثـ، يُلقـيـ اللهـ فيـ رـوـعـ الغـلامـ أـتـهـ نـاجـ وـأـتـهـ سـيـعيشـ حتـىـ يـواجهـ أـخـوـتهـ بـهـذاـ المـوقـفـ الشـنيـعـ،ـ وـهـمـ لاـ يـشـعـرـونـ أـنـهـ هـوـ.

المشهد الخامس: الأخوة يواجهـونـ الوـالـدـ المـفـجـوعـ:

يلقـقـونـ لـهـ قـصـةـ أـهـاـهـمـ الحـقـدـ الغـائـرـ عـنـ سـبـكـهـاـ...ـ تـسـرـعـواـ وـجـاؤـواـ عـلـىـ قـمـيـصـهـ بـدـمـ كـذـبـ لـطـخـوهـ بـهـ فـيـ غيرـ إـتقـانـ...

المشهد السادس: المـحـنةـ الـأـولـىـ فـيـ حـيـاةـ يـوسـفـ:

يوـسـفـ الـذـيـ رـُمـيـ فـيـ الـبـئـرـ تـلـقـطـهـ قـافـلـةـ سـيـارـةـ وـتـبـيعـهـ بـشـمـ بـخـسـ...ـ وـيـحـذـفـ السـيـاقـ التـفـاصـيلـ:ـ غـيرـ المـهـجـةـ بـالـنـسـبةـ إـلـىـ مـدـارـ القـصـةـ.

الفصل الثاني (أربعة مشاهد)

المشهد الأول: يوسف يُباع في سوق الرقيق، ولا يكشف السياق عمّن اشتراه، لكننا بعد شوط نعلم أنه عزيز مصر، ونعلم أن يوسف قد وصل إلى مكان آمن "أكْرمي مَثْوَاه" مبالغة في الإكراام.

يكشف الرجل لامرأته عمّا يتوجهه في الغلام من خير؛ وهنا يقف السياق ليتبّع إلى أنّ هذا التدبير من الله، وبه ويمثله قُدْرٌ ليوسف التمكين في الأرض "لَكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"، لا يعلمون أنّ أمر الله هو الذي يكون وهذا الكلام موجّه إلى قوم الرسول، أَهْمَمُ لِنَ يُفلحُوا في التصدّي لدعوة النبيّ لأنّ أمر الله غالٍ وسيطر، "وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدَدَهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا" وكان ذلك جزاءً لإحسانه في الاعتقاد وإحسانه في السلوك و"كَذَلِكَ بَخْرِي الْمُحْسِنِينَ".

المشهد الثالث: نعرف للمرة الأولى أن المرأة هي امرأة العزيز: يعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة، وانتشار الخبر...

المشهد الرابع: بطلة هذا المشهد امرأة العزيز التي تواجه نساء طبقتها بمكرٍ أكبر من مكرهنّ وكيدٍ أشدّ من كيدهنّ... وتعلن "وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيُسْجِنَنَّ وَلَيُكُوَّنَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ". أمّا هو فيستنجد بالله ليصرف عنه كيدهنّ/ فيستجيب له "إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ". واحتزار يوسفُ محنته الثانية.

الفصل الثالث (أربعة مشاهد)

الخنة في هذه الحلقة الثالثة من محن الشدة في حياة يوسف، وفي قلب هذه الخنة تتجلى نعمة الله على يوسف، بما ولهه من علم لدبي بتعبير الرؤيا؛ ثم تتجلى نعمة الله عليه أخيراً بإعلان براءته الكاملة إعلاجاً رسمياً بحضور الملك، وظهور مواهبه التي تؤهله لما هو مكتون له في عالم الغيب من مكانة مرموقة وثقة مطلقة وسلطان عظيم.

المشهد الأول: بدا لهم أن يسجّنوه إلى حين... ودخل معه السجن فتيان... في السجن يكسب يوسف ثقة المساجين ويعلن أنه ليس على ملة هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر (القوم الذين رُبّي فيهم)، وإنّه يتبع ملة آبائه: أي ملة التوحيد:

"أَرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ حَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ؟" و "مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا" ... بعد تفسير رؤيا الفتى، يطلب إلى الناجي منهما أن يذكره عند سيده، ولكنّ هذا الأخير ينسى.

المشهد الثاني: الملك في مجلسه يعلن عن رؤياه، فيتذكّر ساقيه أمر يوسف ويقول: "أَنَا أُنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونَ".

المشهد الثالث: يوسف في السجن والساقي يستفتحيه، ويلقّبه بالصديق، وينقل رؤيا الملك بدقة، ولم يكن تأويل يوسف تأويلاً مباشراً مجرداً، إنما هو التأويل والنصح بمواجهة عواقبه، فقد تعامل يوسف مع أزمة محدّدة تتلخص في عدّة بنود:

1- تزرعون دأباً.

2- تحصدون ثم تتركون حبّه في سنبله تخزيناً.

3- تأكلون قليلاً منه.

4- توّزعونه على السنوات العجاف إلا بذور الزرع.

ستنتهي المشكلة بعودة الأمطار والرخاء، وهنا نلحظ أنّ هذا الرخاء لا يقابله رمزٌ من رؤيا الملك، إذًا هو من العلم الالدي الذي علّمه الله يوسف.

المشهد الرابع: يرفع الستار على مجلس الملك... ويكون قوله "أَتُؤْنِي بِهِ" نتيجة لما حذفه السياق: أي ما نقله الساقى من تأويل الرؤيا...

يوسف لا يستعجل الخروج من السجن قبل أن يتم التحقيق بقضيته وإثبات براءته (وفي كل الأحوال هو واثق منها)...

الملك يستجوب النسوة... وتأتي الشهادة كاملةً ببراءته وصدقه "الآن حَصْحَصَ الْحُقْقُ أَنَا رَأَوْدُثُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ".

لقد فصلت بين الحق والباطل، ما يشي أنّ عقيدة يوسف أخذت طريقها إلى قلبها فآمن. يشي السياق بحافر آخر، هو حرصها أن يحترمها الرجل المؤمن الذي لم يعبأ بفتنهما الجسدية، أن يحترمها تقديرًا لإيمانها ولصدقها وأمانتها في حقه عند غيبته.

الفصل الرابع (ثمانية مشاهد)

بعد انتهاء مخنة السجن ومحنة الاتهام لم يتلهّف يوسف على مغادرة السجن الظالم المظلم إلى رحاب الملك الذي يرغب في لقائه. إنّها الطمأنينة التي تسكّبها التربية الريانية في قلوب الصفوّة المختارّة، بالابتلاء والمعاناة والرؤيا المشاهدة والمعرفة والتذوق... ثم الثقة والسكينة.

هذه الظاهرة الجديدة في شخصيّة يوسف هي الظاهرة التي يحتفل بها سياق القصّة وسياق السورة من الناحية الحركيّة التربوية للمنهج القرائي.

المشهد الأول: ثبت للملك أنّ يوسف بريء فطلب أن يستخلصه لنفسه، يوسف من ناحيته ذكر للملك من صفاته ما يؤهله لإنجاز هذه المهمّة التي يرى أنّه أقدر عليها: "إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ".

ثم يحذف السياقُ رد الملك، ويدع القارئ يفهم أنه في المكان الذي طلبه.

المشهد الثاني: دارت عجلة الزمن، وطوى السياق دورانها، فلم يذكر كيف كان الخصب، وكيف زرع الناس، وكيف نظم يوسف ودبر وادّخر، وكذلك لم يذكر السياق الملك ولا أحداً من رجاله بعد ذلك في السورة كلّها، كأنّ الأمر كله قد صار لي يوسف.

أمّا فعل الجدب فقد أبرزه السياق في مشهد إخوة يوسف ومن ذلك ندرك اتساع دائرة الجماعة وندرك كيف صارت مصر مخزن الطعام في المنطقة.

وفي الوقت نفسه تمضي قصة يوسف في مجراتها الأكبر بين يوسف وإخوته وهي سمة فية تحقق هدفاً دينياً في السياق.

لم يكشف لهم يوسف عن نفسه، ولكننا ندرك من السياق أنه أنزلهم منزلًا طيباً، فلما أنسوا إليه استدرجهم، وعلم أنّ لهم أخّا من أبיהם أصغر منهم، لا يطيق أبوه فراقه، فطلب أن يحضروه معهم.

المشهد الثالث: لم يعطهم يوسف قمحاً، إنّما وضع لهم بضائعهم في رحالمهم ليضطّرّهم إلى العودة بأحبيهم. واستسلم يعقوب على كره، مشترطاً أن يعطوه موئلاً.

ونقف هنا أمام قول يعقوب عليه السلام "إِنَّ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ" واضح من سياق القول أنه يعني هنا حكم الله العقدي القهري الذي لا مفر منه ولا فكاك وأوصاهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، معنى ذلك أنه كان يخشى عليهم...

المشهد الرابع: بجد السياق هنا يعجل بضم يوسف لأخيه بينما الطبيعي أنّ هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف لكن بعد أن احتلّ يوسف أخيه، ولكنّ هذا ولا شكّ كان أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه. ومن ثم جعله السياق أول عمل لأنّه كان أول خاطر. وهذا من دقائق التعبير في هذا الكتاب المعجز!

ويطوي السياق مشهد الضيافة، ليعرض مشهد الرحيل الأخير فنطلع على تدبير يوسف ليحتفظ بأخيه، ريشما يتلقى إخوته درساً ضروريًا لهم، وضروريًا للناس في كل زمان ومكان: "فَلَمَّا جَهَزُوهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَدْنَ مُؤَذِّنَ أَيْتَهَا الْعِيرُ إِنْكُمْ لَسَارِقُونَ (70) قَالُوا وَأَفْبُلُوا عَلَيْهِمْ مَا دَأْتُمْ تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ حَاءَ بِهِ حَمْلٌ بَعِيرٌ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُوا تَالِلَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا حِئْنَا لِنُفْسِدِ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ بَخْرِي الظَّالِمِينَ (75) فَبَدَا بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءَ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءَ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَذَنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِنْ نَشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ (76) قَالُوا إِنْ يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ أَخْ لَهُ مِنْ قَبْلٍ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَدِّهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصْفُونَ (77) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78) قَالَ مَعَادُ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَظَالِمُونَ (79).

هو مشهدٌ مثيرٌ، حافلٌ بالحركات والانفعالات والمفاجآت، كأشد ما تكون المشاهد حيويةً وحركةً وانفعالاً غير أن هذه الحركة صورة من الواقع يعرضها القرآن هذا العرض الحي الأخاذ.

إن هذا النص يحدد مدلول الكلمة "دين" -في هذا الموضع- تحديداً دقيقاً، إنه يعني نظام الملك وشرعيه، الذي ما كان يجعل عقوبة السارق استرقاقه جزاء سرقته. إنما هذا كان نظام يعقوب وشريعة دينه. وقد ارتضى إخوة يوسف تحكيم نظامهم لهم وشريعتهم لأحکم موقنون بالبراءة. وذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه.

أراد يوسف أن يلقي عليهم درساً، وكان يعلم أن أخاه ليس بسارق، ولذلك عبر أدق تعبيه يحكيه السياق هنا "مَعَادُ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ" وهي الحقيقة الواقعة من دون زيادة في اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه.

المشهد الخامس: الإخوة يراسون من محاولة تخلص أخيهم الصغير، فانصرفو من عنده، وعقدوا محلسًا يتشاورون فيه. وهم هنا في هذا المشهد يتناجرون. والسياق لا يذكر أقوالهم جميعاً. إنما يثبت آخرها الذي يكشف عما انتهوا إليه: "فَلَمَّا اسْتَيَأْسُوْ مِنْهُ خَلَصُوا بَيْنَهُمْ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَائِكُمْ قَدْ أَخْذَ عَلَيْكُمْ مَوْتِيَّا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلِهِ مَا فَرَطْتُمْ فَلَمَّا أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْدَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ

الحاكمين (80) ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا آبائنا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنّا للغيب حافظين (81) وسائل الغريبة التي كنّا فيها والغير التي أقبلنا فيها وإنما لصادقون (82).

يذكرهم كبيرهم بالقسم المأخذ عليهم كما يذكرهم بتفسيرهم في يوسف من قبل. ويقرر ألا يربح مصر ويطلب إلى إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحةً بأن ابنه سرق. فأحد بما سرق. ويطوي السياق الطريق بهم.

المشهد السادس: مشهد الإخوة أمام أبيهم المفجوع، وقد أفضوا إليه بالنهاية الفظيع: لم يقل إلا ما كان قد قاله يوم فقد يوسف، لكنه يضيف إليه هذا الأمل، كأن شعاعاً ينبع من قلب الرجل: إنه الرجاء في الله... يكظم حزنه ويتجلد، أما أبناءه المحجوبون عن حقيقة ذلك الواقع الصغير المنظور فلا يرحمون ما به "قالوا تالله نعمت تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الماكين". لكنه هو يوجههم ألا يتأسوا من روح الله بما تتضمنه هذه الكلمة من ظلال الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسّم على الأرواح من روح الله الندي.

المشهد السابع: يدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة وقد بلغ بهم الانكسار مبلغاً عظيماً، فلا يبقى في نفس يوسف قدرة على تمثيل دور العزيز... وحان أوان المفاجأة الكبرى...

ينجح يوسف في الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل في الابتلاء بالشدة، إنه كان من المحسنين".

تبعد ذلك مفاجأة كبرى: "فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدى بصيراً".

مفاجأة القميص دليل على وجود يوسف وقرب لقياه، ثم مفاجأة ارتداد البصر، ثم يذكر يعقوب حقيقة ما يعلمه من ربه. تلك التي حدّتهم بها من قبل فلم يفهموه.

المشهد الثامن يطوي الزمان والمكان "فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبوه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله أمين (99) ورفع أبوه على العرش وخرعوا له سجداً وقال يا أبا تأولوا رؤيائي من قبل قد

جَعَلَهَا رَبِّيْ حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّجْنِ وَجَاءَ بُكْمٌ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِ وَبَيْنِ إِخْرَتِي إِنَّ رَبِّيْ لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100).

يرى يوسف تأويل رؤياه بين يديه في سجود إخوته، وأخيراً يدعوه الله أن يتوقف ربه مسلماً وأن يلحق بالصالحين.

المستويات التقنية المنتجة للدلالة:

لقد خرج يوسف من كل المحن التي مر بها متجرداً حالصاً ومنتصرًا، فلا عجب أن تكون هذه السورة تسليةً وتسريةً وتطميناً وتبنيتاً للمطاردين المغتربين (النبي صلّى الله عليه وآلـه وسلم والقلة المسلمة). والسورة ذات طابع متفرد في احتواها على قصة يوسف مكتملاً، هذا الطابع الخاص يتناسب وطبيعة القصة، ويعيدها أداءً كاملاً، ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف وتنتهي بتأويلها.

وبين سرد الرؤيا ومسار تحقيقها تنهض بنية القصة بمستويات من الرؤى والرموز والأحداث والخيل، ويترافق تطورها وتشابك عناصرها مما يدفعنا، في هذه الدراسة التحليلية إلى تتبع تنامي هذه المستويات للكشف عن حركتها التقنية التي تشجع دلالة النص.

مستوى الرؤيا:

في قصة يوسف أربع رؤى تظهر في ثلاث مراحل متعاقبة، لكل مرحلة زمانٌ ومكانٌ معينان:
المرحلة الأولى: رؤيا يوسف ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكِباً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِين﴾.¹

الرحلتان الثانية والثالثة: رؤيا فتىي السجن: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَى أَعْصِرُ حَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَى نَارًا أَحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرَ مِنْهُ نَبَّنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِين﴾.²

¹. سورة يوسف، الآية: 4.

². سورة يوسف، الآية: 36.

المرحلة الرابعة: رؤيا الملك: ﴿وَقَالَ الْمُلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَمَانٍ يَا كُلُّهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُبُّلَاتٍ خُضْرٌ وَأَخْرَ يَاسِنَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايِّ إِنْ كُنْتُمْ لِرُؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾³.

والصور المرئية: تتكرر من الكواكب الساجدة إلى الطيور الآكلة من رأس الفتى، إلى البقرات التي تلتهم مثيلاتها الحزيارات، وتکاد كثافة التعبير البلاغي للرؤى أن توحى بأها صور مرئية بالعين المجردة. أمّا شخصيات النصّ: يوسف، يعقوب، الإخوة، امرأة العزيز، فتى السجن، والملك، فصور متعددة للجنس البشري في مستوياته المتباينة، سواء كانت هذه المستويات اجتماعية، دينية، ثقافية، جنسية، فكرية، وطبقية... تتفاعل في ما بينها داخل النصّ ضمن آلية معينة لتنتج دلالة النصّ التي تحوي إلى حدّ ما علّة وجوده.

المكان :

في القصة القرآنية لا يذكر المكان إلا إن كان له أثرٌ خاصٌ في إيصال رسالة القصة وغايتها. المكان في هذه القصة ظهر عنصراً متغيّراً على النحو التالي:

1) في الرؤيا الأولى: لم يذكر المكان، وإنما كان الكون هو المسرح الذي سجّدت فيه الكواكب والشمس والقمر ليوسف (من السماء نحو الأرض): إذًا في يوسف يمثل في هذه الرؤيا رمز الإنسانية المثلثة (النبيّة). ومن بعد ذكرت مصر: المكان الذي حمل إليه يوسف عبدًا وقضى حياته فيها.

2) في الرؤيا الثانية: المكان هو الواقع المعاش: ولكن في الرؤيا يتغيّر عمل الرائي من تقديم الخمرة إلى عصرها.

3) في الرؤيا الثالثة: المكان هو الحياة اليومية في مصر أيضًا لخباز من حلال حمله للخبز على رأسه والسير به، ثم تدخل الطيور التي تنقض على حبه ثم ترتفع نحو السماء، لتتضفي على المكان سعةً: الأرض غير منفصلة عن السماء... (من الأرض نحو السماء). والبقر والستابل هي رموز الشروة الوطنية (مصدر الرزق والحياة).

³. سورة يوسف، الآية: 43

أَمَا الزَّمْنُ فَيُطَوِّرُ وَيَنْمُو مِنْ خَلَالِ نَمْوِ يُوسُفَ وَالْمُحِيطِينَ بِهِ:

يوسف طفلاً، يوسف شاباً وكذلك المسجونان معه؛ يوسف في مرحلة النضج يكلفه الملك بمهمة الإعداد للمرحلة المستقبلية، التي سيمر بها الشعب (الفحط)... من خلال البرنامج الاقتصادي الذي ضمّنه يوسف لتأويله رؤيا الملك.

الزمان في القصة القرآنية، لا سيما في قصة يوسف هو الذي يمسك بالحوادث ويحركها، وهو زمانٌ حيٌ ومعلوم ومليء بالمعنى: فحين أقدم إخوته على رمييه في البئر، كانوا يدركون أنّ وجههم تحمل تعبير الدناءة والخداع والكذب، من هنا كان لاختيار الوقت الذي نقلوا فيه الخبر إلى أبيهم دورٌ أساسيٌ في تطور القصة، اختاروا الليل لستر علائم الغدر على وجههم: "وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ" (الآية 16). وعنصر الزمان هذا هو الذي جعل أباهم يدرك نواياهم، لأنّهم لو كانوا صادقين لأسرعوا إلى إخباره، ولم ينتظروا حلول الظلام.

في القصة نفسها، لم تُحدّد المدة التي قضتها يوسف في السجن، لأنّ المهم هو التأكيد على أنّ يوسف على الرغم من طول المدة التي قضتها في السجن، لم ييأس ولم يتخلّ عن الإيمان بالله والدعوة إليه. فإنّ تمام الزمان هو عين الوضوح. "وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلِئِنْ فِي السَّجْنِ بِضُعْ سِنِينَ" (الآية 42).

الأحداث:

تفاعل الأحداث كلّها من خلال تفجّر عناصر الحياة التي تتضمّنها الرؤى في دلالاتها المتعدّدة:

تأوّيل الرؤيا الأولى: سجود الكواكب - السموم.

تأوّيل الرؤيا الثانية: مصير الساقي - الحياة.

تأوّيل الرؤيا الثالثة: مصير المخباز - الموت.

علاقة الملك بالمجتمع – النظام الاقتصادي:

والرؤيا هي التي كانت تحرّك الشخصيات والماواقف:

فالرؤيا الأولى أيقظت هواجس يعقوب، فدفعته لتحذير يوسف من إخوته، فهواجسه وشعوره بما يكتنه الإخوة من حسدٍ ليوسف، كانت وراء إحاطته بسور من الحذر، وهذا الحذر هو الذي غدّى حسد الإخوة، فلجأوا إلى الحيلة وهي تغيب يوسف عن أبيه، ليستروا حبه واهتمامه. لم يتكلّم القرآن الكريم على جذور هذا الحسد الذي يذكّرنا بحسب أحد أبييْه آدم لأخيه، مهدّداً إياه بالقتل.

أما رؤيا الساقِي فإنّ تأويل يوسف لها أنجاه من السجن، ومن التهمة التي أُلصقتها به امرأة العزيز. وتأويله لرؤيا الملك مهدّد لعودته إلى العائلة وكشف المؤامرة الأولى ومن ثم تحقّقت الرؤيا الأولى.

وإذا كان الفعل في القصة يتحرّك باتجاهين:

اتجاه إلى الداخل: الرؤيا.

واتجاه إلى الخارج: أحداث القصة.

فإنّ فعل الرؤيا بحد ذاته يرمز إلى المستقبل: الزمن الآتي. فالسجود في الرؤيا الأولى: يدلّ على السمو والرفة والمكانة التي سيحصل عليها يوسف في المستقبل.

وأما فعل الأكل: البقرات السمان والعجاف والسنابل، فيُمثّل مصير المجتمع في الزمن الآتي.

مستوى الحيلة:

هناك أربع حيل تنتهي إلى المراحل الثلاث المتعاقبة في بنية القصة، لكل منها دافعه السلبية أو الإيجابية.

1- حيلة إخوة يوسف: وموضوعاتها: التغيب الكامل لوجوده المادي والاجتماعي وضحيتها يوسف، والداعي إليها (حب الأب ليوسف)، بدأت باستدراج يوسف (العزل)، بعدأخذ الإذن من الأب (الكذب) ثم رميَه في البئر (تنفيذ الحيلة).

2- حيلة امرأة العزيز: والداعي إليها حبها ليوسف، راودته عن نفسه بعد أن غلّقت الأبواب (العزل)، ولقد همت به... وقدّرت قميصه من ذُبُر (تنفيذ الحيلة).

3 - حيلة امرأة العزيز: ودافعها الاقتصاص من نساء المدينة، اللواتي أطلقن الشائعات حولها، بحيث أعدّت لهنّ متكأً، وأتت كلّ واحدة منها متكأً فقطّعن أيديهنّ، فدفعتهنّ إلى القول: ما هذا بشرًا، لتسويع فعلتها: قالت: "ذلّك الذي لمتنّني فيه"، كشفت عن سبب موقفها من يوسف، معيّنة مكانته ابنًا، ومظهّرةً مكانته رجلاً.

4 - حيلة يوسف: موضوعها إعادة الحق إلى نصابه وتحقيق العدالة، وضحيّتها إخوة يوسف: استدرجهم وطلب إليهم أن يأتوا بهم من أبيهم... للوصول إلى المدف.

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهُدَا أَخِي﴾.

الهدف: الكشف عن هويته لإخوته وإظهار كامل وجوده المادي والمعنوي، الذي غيّبه حيلة إخوته.

مستوى الرمز:

ظهر الرمز في قصة يوسف في الرؤى وفي الحيل وفي الأحداث، وقد شكل (القميص) من خلال المجال الدلالي الذي كونه رمزاً بعيد الدلالة:

لقد ظهر القميص في ثلاثة مواقف خطيرة في سياق القصة:

الأول: في مؤامرة القتل حين عاد إخوة يوسف يحملون قميصه، وعليه دم كذب، فالقميص الملطّخ بالدم هو كلّ ما تبقى من يوسف الغائب فهو هنا رمز الغياب، وتجسيد للعلاقة الدائمة بين الأب ويوفّه: يذكّره به.

الثاني: حين ادّعت امرأة العزيز أنّ يوسف هو الذي أراد بهاسوءاً، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أكّها صادقة ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبْلِهِ﴾ وكاذبة إن كان قميصه ﴿قُدَّ مِنْ ذُبْرِهِ﴾ وهو من الصادقين، فقد صار القميص القاعدة الأساسية التي يُبني عليها الحكم. وأدى القميص/الأثر الدور الأساسي في اتخاذ الحكم نحو التحرّم أو الإبراء، فطبع بذلك مصير الأنوجذج/ الإنسان.

الثالث: حين عادوا بقميص يوسف إلى يعقوب: حلّ القميص محلّ يوسف فالقميص هو الذي يردّ البصر ليعقوب، فهو يشمّ يوسف من خالله.

القميص هو الرمز الدلالي وفي الوقت عينه هو رمز ليوسف (الإنسان) في يوسف (الإنسان) يموت أو يغيب، ويبقى أثره.

- ويوسف (الإنسان) معيار قيمته في آثاره (القميص).

- آثاره كإنسان مجال لعطائه.

لقد أعطى القميص (الرمز) زخماً مضاعفاً لتواتي الأحداث، كما ساعد إلى درجة كبيرة في رسم الصورة الوصفية لأفعال الأشخاص:

- صورة إخوة يوسف ي يكونون وهم يحملون القميص الملطخ بالدم.

- صورة القميص الممزق على جسد يوسف.

شخصيات القصة:

- يوسف (الشخصية المحورية)

الشخصيات الأخرى: كلّ منهم مأسور بفكرة معينة أو حالة نفسية معينة.

- يعقوب: [الحب - الألم - التنبؤ - الصبر] يجد حالته النفسية وهواجسه بتحذير يوسف من إخوته، بأن يكتم رؤياه عنهم، وينصح أبناءه أخيراً في الدخول من أبواب متفرقة.

- إخوة يوسف: الحسد: تغريب يوسف.

سبب الحسد: تفضيل الأب ليوسف على إخوته- تفوق يوسف عليهم جسدياً ← المؤامرة ← الكذب ← التباكي.

- امرأة العزيز: إشباع رغبتها الجنسية: حيلة غلق الأبواب، وتوجيه التهمة إلى الفتى.

- الملك: فكرة الصراع تحكم به، لذلك ظهر فعل الإهلاك بين عناصر رؤياه: موقفه من يوسف في صراعه مع امرأة العزيز - رؤياه التي فسرها له يوسف - توليته ليوسف على خزان الأرض.

- السيارة (البدو): الغنية: بيع الإنسان من أجل الحصول على المال.

أما يوسف الشخصية المحورية، فقد كان دوره أن يحرر الإنسان الآخر من الفكرة المستحوذة عليه والمستعبدة له:

- فهو يتحرك في مستوى المعارضة ضد دوافع الحسد، ويتحرك في التيار المضاد لإشباع الشهوات خارج النظام الأخلاقي والاجتماعي.

- يساوي بين خروجه من السجن وإثبات براءته من تهمة خرق النظم الأخلاقية والاجتماعية، وهكذا تُعاد محاكمته، وتثبت براءته، وتشهد امرأة العزيز لصالحه.

- يوسف يحول فكرة الصراع التي تستحوذ على ذهن الملك إلى مستوى التنظيم والتدبير. وبالنسبة إلى الساقِي فقد عمل يوسف على دعوته إلى أن يثبت في وعيه الحقيقة الإلهية المطلقة، التي تحرر الإنسان من نوازعه الذاتية الضيقَة، وتطلقه في مجالات السمو الكونية: ارتباطاً بالآخر، بالمجتمع، بالكون، بالمطلق، داخل السجن، لكنه نسي عند بحثه الإنسان الآخر (يوسف)، وهذه انتكاسة أخلاقية كشفت عن تأثير نوازع الشر في استغلالها لقوَّة الفكرة الأسرة، ولو لا رؤيا الملك، ومحنته في البحث عن تعبير حقيقي لرؤيَاه، لما أُزْيَحَ الغبار عن ذاكرة الساقِي الأناقية.

إن الدراسة التحليلية للسورة بدلاتها المتعددة، تؤكّد على أهمية التأويل من داخل النص وليس من خارجه، فكل تأويل يعتمد على المرويات صادقة أم كاذبة، هو خرق لبنيَّة النص وتشويه لدلالته، إن لم يكن تحريفاً لها.

إن الرؤيا في النص كإشارة غيبية مثلت حقيقة الواقع المؤجل، بينما قدمت الحيلة الحياة كواقع مزيف: وهذه الدلالة ليست موجّهة نحو شخصوص القصة بل نحو مستمعي الخطاب (أهل مكّة)، فالمقارنة تُفاضل بين تأسيس واقعٍ على نظام ثابت من الحقيقة الإلهية، ومجتمع هو مجموع لأخطاء بشرية أو نوازع نفسية قلقة: وجاءت الآيات الأخيرة في السورة تدعى المجتمع إلى الرؤيا المتدايرة لحكمة الله، والتي هي أفضل من الرؤيا التي تومض في الوعي البشري:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرِي وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الدِّيْنِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَعْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

إِنَّما لعِبرَةُ لأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ من معاصري الرسول للمؤمنين الذين يتظرون فرحاً ومخرجاً من المحنة التي أحْيَت هُم، عِبْرَةً لليهود الذين يعيشون في أوساط المسلمين ليدرِّكُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَ مُحَمَّداً نَبِيًّا كما أَرسَل

موسى من قبل في مصر لإنقاذ آبائهم الذين جاؤوا إلى مصر زمن يوسف ثم تعرضوا للاضطهاد من بعده. وقد جاء ذكر مصر في القصة لهدفٍ متعددٍ الجوانب.

إن هذه القصة، وغيرها من القصص التي تروي أخبار الأنبياء السابقين، كانت من العوامل النفسية المهمة التي خففت الضغط الروحي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضْبِيقُ صَدْرُكَ إِمَا يَعْلُوْنَ (الحجر: 97)، لأنَّه كان يرى بوضوح ثمار نصرة الله عز وجل ورحمته للرسل السابقين، كانت تجذب الانتصارات المعنوية التي حققها الأنبياء السابقون، داعمًا كبيرًا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأصحابه المخلصين لمتابعة طريق تبليغ الرسالة.